الثقافة العربية و آفة الكذب

في معرض الحديث عن قضايا التخلف الثقافي في الوطن العربي، تطرق الحديث إلى عادة الكذب، والتي غدت قيمة اجتماعية ومهارة سلوكية على درجة كبيرة من الأهمية، وإن كانت تلك الأهمية والقيمة الاجتماعية غير معترف بها رسميا من قبل الشعب آو الدولة العربية. قال لي صديق من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة أن ابنته طلبت من مديرة المدرسة التي كانت تدرس فيها السماح لها بالتغيب عن المدرسة ليوم واحد لأن زميلة لها كانت بحاجة لمساعدتها في الإعداد لحفلة زفافها. لكن المديرة قالت للطالبة المعنية بأن هذا غياب لا تجيزه التعليمات المدرسة. لذلك نصحتها المديرة بالحصول على شهادة مرضية من طبيب يبرر فيها الحاجة للتغيب عن الدراسة. لم يتردد الأب في الاستجابة لرغبة ابنته، حيث قام بالاتصال بأحد معارفه من الأطباء، والذي كان سعيدا بأداء خدمة لصديق ورجل معروف. وهكذا، قامت الطالبة بالكذب على إدارة المدرسة بمعرفة مديرة المدرسة وتشجيعها، وقام الأب بمساعدتها على تمرير الكذبة، وتوريط طبيب في عملية الكذب وإصدار شهادة طبية لشابة لم يكشف عليها، وبالرغم من معرفته بأنها تحتاج لتلك الشهادة لمخالفة قوانين مدرسية رسمية.

وتُستخدم مهارة الكذب على نطاق واسع في المناسبات العامة حين يجد الكاذب نفسه مضطرا لإنكار تصرف مخالف لما يتوقعه الآخرون منه، أو حين يقوم باتخاذ موقف لا تجيزه العادات أو الأعراف المرعية بين الناس. وكما تتفشى عادة الكذب بين عامة الناس، تنتشر على نطاق واسع بين المسؤولين الذين يلجئون إليها حين يفشلون في الوفاء بالتزامات يكونوا قد قطعوها على أنفسهم، أو حين يفشلون في الالتزام بواجبات تمليها عليهم وظائفهم. وحين يُسأل المرء عن موقف شخصي لا يملك الجرأة على البوح به، فإنه يجد الكذب وسيلة مضمونة لإنقاذه من ورطة مؤكدة، بينما تكون الأمانة مشكلة قد تعود عليه بعواقب وخيمة. ففي شهر رمضان مثلا، نلاحظ أن من الصعب أن يعترف إنسان غير صائم بعدم صيامه حتى وإن كان لديه عذرا مقبولا يفرض عليه تناول دواء بصفة منتظمة تتعارض مع الصيام. وفي إحدى المناسبات تطرق الحديث إلى قضية الصيام أثناء جلسة عشاء جمعتني قبل سنوات مع مجموعة من الشعراء من الرجال والنساء في مدينة فاس بمناسبة مهرجان "خيمة الشعر"، قالت إحدى الشاعرات المغربيات أنها واحدة من بين خمسة أخوات لا تصوم إحداهن أبدا. ثم أضافت قائلة بأنها لا تستطيع هي وأخواتها البوح بتلك الحقيقة لان والدهن "لو عرف بذلك فإنه من المؤكد أن يصاب بجلطة قلبية تقتله على الفور". ولكن حين سألتها عما إذا كان الأم تعلم أن بناتها جميعا لا تصوم شهر رمضان، قالت نعم الأم تعلم هذه الحقيقة. وهكذا تكذب البنات ويكذب الأولاد والأمهات تتواطئ معهم فيما يكون الأب آخر من يعلم.

وعلى الرغم من أن الكذب آفة اجتماعية مضرة بصحة الكاذب النفسية، ومشكلة مجتمعية تجعل من غير الممكن على أي شخص أن يتأكد من أمانة شخص آخر إلا إذا كان يعرفه جيدا ويثق به كثيرا ويفهمه تماما، وهذا بحد ذاته شيء من النادر حدوثه، فإن موقع الكذب من الثقافة العربية لا يزال في صعود. وفي ضوء تعود الناس على الكذب واستمراء الكثيرين له، وتفنن البعض في ممارسته وأساليب التعبير عنه، فإن الكذب أصبح حقيقة من حقائق الحياة، وعنصرا من عناصر الثقافة السائدة. وهذا جعل الكذب يكتسب بعضا من الشرعية بصفته عادة شائعة و "شر لا بد منه"، ويتشعب إلى فنون كثيرة مثل النفاق والرياء والمديح والتفاخر والاستضعاف والتزلف.

إن للكذب أسبابا كثيرة ودوافع عديدة لا يمكن حصرها، لكن السبب الأساس، والذي تنبع منه وتنبثق عنه كل دوافع الكذب ومسبباته، هو انعدام الحرية الشخصية. فحين يشعر إنسان بأنه لا يملك ما يكفي من الحرية كي يقول ما يريد أن يقول، ويفعل ما يريد أن يفعل، يصبح لزاما عليه التنازل عما يريد أن يقول ويفعل، أو اللجوء إلى الكذب لإخفاء مشاعره ومواقفه غير المقبولة، وإنكار تصرفاته غير التقليدية. وحيث أن انعدام الحرية هي حالة شائعة في البلاد العربية، وليست مقصورة على فئة دون أخرى، فإن الكذب أصبح صفة تلازم كل فرد تقريبا، خاصة الأبناء في مواجهة الآباء والأمهات، والطلاب في مواجهة الأساتذة، والشعب في مواجهة السلطة، وجيل الشباب عموما في مواجهة جيل الشيوخ، واللبراليين فكريا في مواجهة المتزمتين عقائديا.

إن التغلب على عادة الكذب في المجتمع العربي مشكلة عويصة لأنها أصبحت جزءا من ثقافة شعبية مهيمنة وتحظى بشرعية اجتماعية. على الرغم من ذلك لا يمكن أن يستمر تماسك العائلة، وأن تتوطد الصداقات والمصالح، وأن تتم المعاملات التجارية والمالية دون خوف، وأن يتقدم المجتمع إلا إذا توفرت الثقة فيه وبين أفراده. ومن أجل التغلب على عادة الكذب لا بد من تحرير الإنسان من الكبت الاجتماعي والتسلط السياسي والفقر الاقتصادي وهيمنة المؤسسة الدينية على المعرفة، وتعويده على الجرأة في التعبير عن مشاعره وأفكاره وآرائه بأمانة. إلى جانب ذلك، لا بد من احترام خصوصية الفرد وحقه في أن يقول ما يشاء وأن يفعل ما يشاء، ما دام ما يقوله وما يفعله لا يلحق ضررا بالآخرين ولا يعتدي على حرياتهم أو حقوقهم. وعلى العموم لا بد وأن يعرف الناس، خاصة من يلجأ منهم إلى الكذب بشكل معتاد لإخفاء مشاعرهم أو للتستر على بعض تصرفاتهم، أن هناك فرقا كبيرا بين أن يكذب الإنسان وأن يمتنع عن قول الحقيقة. إن من حق كل إنسان، ويجب أن يكون من حقه، أن يحتفظ لنفسه ببعض آرائه، وأن يتكتم على أسرار حياته، وأن يخفي عن الآخرين خصوصياته. وفي المقابل، على كل إنسان أن يعترف أنه ليس من حقه أن يكذب على الغير من الناس لأن في الكذب خداع للآخرين، وتلاعب على القانون، وتآمر ضد مصلحة الشعب

والوطن، وخيانة لأمانة الكلمة. وهذا ممكن فقط إذا قام أساتذة المدارس بتوعية تلاميذهم، وقام المثقفون بواجباتهم تحاه عامة الناس وتوعيتهم، وقام الإعلام بواجباته والتركيز على الفرق بين الكذب وإخفاء الأسرار.

وإذا قارنا ما يحدث هنا مع ما يحدث في مجتمعات تتوخى الصدق كألمانيا مثلا، حيث يتمتع المواطنون فيها بكامل حرياتهم، ويخضعون لقوانين ومسائلات قانونية، فلن يكون من الصعب علينا أن نكتشف سبب شيوع عدم الثقة بين المواطنين في البلاد العربية، وتوفر الثقة في المجتمع الألماني. إن السماح لثقافة شعبية بجعل الكذب عنصرا ثقافيا ومهارة اجتماعية، وبجعل عملية التوريط في الكذب وممارسته عملا مشروعا هي بكل تأكيد عملية تخالف طبع الإنسان ومزاج الطبيعة. وليس على المرء سوى النظر إلى حال المجتمعات التي تمارس الكذب وتخلق الظروف التي تفرض على الناس أن يكذبوا ليتأكد من أن الكذب مظهر من مظاهر التخلف وانعدام الثقة وفشل المجتمع الذريع في توفير الحرية للجميع. وتقول النظريات التنموية الحديثة أن توفر الثقة الاجتماعية هي من أهم شروط التنمية، وأن غيابها هو من أهم مسببات التخلف، خاصة حين يتخلف القانون عن مواكبة التطور المجتمعي، ويكون تطبيق القانون كاملا حين يتعلق الأمر بحماية نظام الحكم، وإهمال القانون بشكل كامل حين يتعلق الأمر بحماية أمن الوطن والمواطن.

بروفسور محمد ربيع www.yazour.com